حينما تنحرفُ النفسُ عن الفطرة الإنسانيّة

رئيس التحرير
◆ د. عمار عبد الرزاق الصغير

تُعدُّ قوانين الفطرة في بُعدها الاجتماعي، أنظمةً داخليةً راسخةً تضبط العلاقات الخارجيّة لتحقيق بيئةٍ اجتماعيّةٍ صالحة، تقوم على ثباتٍ نفسيّ سليم، وتُهيّئ للاستقامة المجتمعيّة. فنحن أمام سُننٍ فطريّة تحفظ الكيان المجتمعي وتوازناته من أيّ اعوجاجٍ يُهدّد استقراره وسلامته، إذ إنّ معاني الفطرة الدلالية هي السلامة والاستقامة في الخِلقة الأولى: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾[الروم:30]. فهي معيارٌ للحُسن والقُبح، إذ العمل في هديها حسنٌ، والانحراف عنها قبيحٌ، ففعل العدل والإحسان يتلاءم مع طبع البشر وفطرته، فهو حسنٌ، خلافًا للجَور والظلم الذي تستقبحه فطرة الإنسان، بغضّ النظر عن موقف الشريعة منه.

ومن مُقتضيات الفطرة وقوانينها، نظام الزوجيّة بين الذّكر والأنثى الذي أنشأته الحكمة الإلهية بين الكائنات الحيّة، وهو الثّابت التكويني والأصل الجاري في سُنن الكون والطبيعة - التكوينية والتشريعيّة – لحفظ النوع، وديمومة وجوده: ﴿**ومن كلّ شيءٍ خلَقنا زوجينِ لعلّكم تَذَكَّرون**﴾[الذاريات: 49]. ولم يكن الإنسان خارجًا عن دائرة هذا القانون الفطري، بل هو النموذج الأمثل والأكمل لجريانه الذي يتناسب مع حاجاته المادية والنفسية والذهنية في تكامل العلاقة بين الأفراد.

ويُمثّل الشُّذوذ الجنسي أحد مظاهر الاعوجاج والفساد في أنظمة السّلوك البشري الفطري، إذ ترتكز مهمّة الزوجيّة بين الذكر والأنثى، بعلاقتها الشرعيّة على استدامة النوع عبر الانسجام

والسكينة والمودّة، فإنّ كلا الزوجين مخصصٌ للآخر جسمًا ونفسًا وروحًا، يقول الله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾[الروم:21]، فالتناسل بعلاقةٍ شرعيّة، وتكوين الأسرة بعقدٍ قانوني، يُعتبر الوسيلة الصالحة للحصول على ذلك السّكن والرحمة، والسبيل الوحيد الناجع لإنتاج أفرادٍ يؤدّون مهامهم في تكوين مجتمعٍ سليم، ومن دون ذلك يقعون في دائرة شبح الضّياع، وشرور التوحّش، حينما يُدركون أنّهم نتيجة رغباتٍ أنانيةٍ وشهواتٍ قذرة. لهذا عبّر القرآن عن الزنا ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا**﴾[الإسراء: 32]. أمّا الشُّذوذ الجنسي فهو انتكاسٌ للفطرة الإنسانيّة، ونكوصٌ عن مقتضياتها، بل اجتثاثٌ لوجود النوع البشري فيما لو أصبح هو السلوك السائد، والنمط المهيمن.

وقد استقبحَ القرآنُ الكريم على لسان لوط عليه السلام الشُّذوذَ الجنسي بوصفه تأسيسًا لانحراف غير مسبوق عن الفطرة السليمة، فقال في ذلك: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾[الأعراف:80]، مستقبحاً فعلهم ومستقذراً سلوكهم، حينما عَدَوا على مقتضى فطرة الله المودعة فيهم، والتي يقتضيها الطبع السليم، بترك ما هو مخصّصٌ لها: ﴿**وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**﴾[الشعراء:166]. ثمّ شخّص منبع هذا الانحراف السلوكي، وعزاه إلى الجهالة والسّفه: ﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[النمل:55]. إنّه جهالةٌ بشناعة ما يفعلون، وجهالةٌ بمآله وتداعياته.

ويعرض القرآن الكريم محاولة نبيّ الله لوط عليه السلام لإعادة هؤلاء الذي حادُوا عن طريق فطرتهم إلى جادتها السويّة، فيدعوهم إلى سبيلها الأمثل: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ**﴾[هود: 78]، عسى أنْ يجد فيهم عاقلاً رشيدًا يُعيدهم إلى رُشدهم، لكن لم تجد دعوته منفذًا إليهم، لأنّهم صمّوا وعَمُوا، وطُمست فطرتهم تمامًا، فلا يريدون غير ما يرغبون، ﴿**قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ**﴾[هود:79]. ممّا يكشف مستوى انقلاب تفكيرهم، وتشبعهم بالقبائح، وكيف تحوّلت الطبيعة السليمة في الزوجية إلى مُستهجنٍ لا يستسيغونه، فيكون جزاء من يتنزّه عن قبائحهم الإقصاء والنفي، ﴿**فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾[النمل: 56]. وهذا إقرارٌ بأنّ لوطًا عليه السلام ومن معه كانوا على الفطرة الأصيلة

جامع براثا - بغداد

التي تقتضي الطهارة، وأنّ عمل قومه شاذٌّ عن ذلك الأصل التكويني.

بعـد تطهـير الأرض من قوم لوط عليه السلام، لم تعُد هذه الظاهرة سـلوكًا عامًّا، بل بقيت في دوائر ضيّقـة، يُنظـر إليها بوصفها شـاذّةً منبوذةً، حتـى فتحت حضارة الغرب من جديـد الأبواب لهذه الظاهرة، فظهرت أنواعٌ جديدةٌ يُراد جعلها أنسـاقًا سـلوكيّةً عامّةً متقبّلة، وجعلتها محميّةً بالقانون تحت زيف الحريّة، لكنّ حقيقتها استلابٌ لهوية الإنسان التكوينية الطبيعية والنفسية والاجتماعية، ليبقى كائنًا هائمًا من دون هويّة، ولا ينتمي إلى أيّ صنفٍ من الأصناف الاجتماعيّة.

في هـذا العدد من (**مجلة تَبْيين**)، يُطالع القارئ مجموعـةً من الأبحاث المعرفية، التي تناولت معالجـة القرآن الكريم لظاهرة الشُّـذوذ الجنسي، وهو يحمل تمثيلاً لـه امْتداده في حركة التاريخ البشري، مُبيِّنًا أسـبابها وبواعثها المادية والنفسـيّة، ومآلات الإصرار على ممارستها. وقد تنوّعت مقـالات الباحثـين الكرام، لتُغطي أبعادًا متنوعـة لهذه الظاهرة الشّـاذة وتداعياتها على الاجتماع البشري. كما احتضن العدد، دراسـةً عن تجلّيات الإعجاز التشريعي في القرآن، وقراءة في كتاب «المستشرقون والدّراسات القرآنية».

نأمل أنْ يُقدّم هذا العدد من (**مجلة تَبْيين**)، خدمةً معرفيةً للقرّاء الكرام، في معالجة هذه الظاهرة، من خلال الكشف عن موقف القرآن الكريم منها..

وما توفيقنا إلّا بالله..